العودة إلى جذورنا

(1)

بي ميلٌ لأن أقبل، دون إبطاءٍ، أي فكرة يطرحُها عالمُ اجتماع، أو محلل نفسي، في اجتماعات المائدة المستديرة المتلفزة، حيث يتصاعد من بين النظارات واللِحى ودخان الغلايين صوتٌ ذكوريٌّ عميق مُتحقِّقٌ، طارحًا فكرة أن البشر المعاصرين قد تجسدت ملامحُهم، وأن المجتمع الاستهلاكي آخذٌ في استهلاكهم شيئًا فشيئًا.

إنتابني خوفٌ، وطرأت بذهني خاطرةٌ مذهلة، لا جدوى من وصفها لكن من السهل تخيُّلها، دفعتني لإغلاق التليفزيون على الفور، والإسراع إلى متجر (ساسوريو هيرمانوس) للدراجات في حي "فيلا أوركويزا".

لا أعرف كم عدد الأخوة ساسوريو بالمتجر، وإنما عرفتُ فيه رجلًا واحدًا، نحيلًا جدًا، وله عظام خدٍّ بارزة، واتضح لي أنه ماهر وكفؤ ونشيط، وتحدث إليَّ وهو يبيعني دراجةً، فانطلقت منه عبارات قليلة من النوع الذي يقوله المُعلِّمُ لتلميذ: "لقد قمت بأفضل ما يمكنك عمله، فقد أصبحت الحياة معقدة على نحو يدعو لليأس؛ فالدرَّاجة تتسمُ بالبساطة؛ وهي وإن كانت أداة ميكانيكية، إلا أنها ترتبطُ بأشياءٍ طبيعية، كالهواء النقي وآشعة الشمس والتمارين الرياضية.

وقد وافقته. وحلَّتْ بي سعادةٌ طفولية إلى حدٍّ ما وأنا أركب الدراجة متوجهًا إلى شوارع (فيلا أوركويزا) و(فيلا بويريدون)، منتهيًا بعد بضع دقائق في (فيلا لينش)، في (سانتوس لوغاريس) ، في (إل– بالومار).

قلت لنفسي: يا للروعة!.. لقد جعلتني هذه المركبة البسيطة التقشفية أقطع مسافات طويلة في وقت قصير نوعًا.

نعم، ولكن إلى أي مدىً ذهبتُ حقًا؟

ولأنني أمقتُ عدم الدقة والتخمين، رأيتُ أن أعود لمقابلة السيد ساسوريو، الذي حدجني – هذه المرة – بنظرة حادة متشككة، وبدا أن ثمة تحولًا في موقفه. قال: تذكَّرْ أنك أنت الذي اخترت أن تعود. أجبتُ بإطراء عاطفي: يعود العميل القانع دائمًا إلى التاجر الأمين.

وسألتُه عما إذا كان يعتقدُ أن إدخال تعديل على الدراجة بتزويدها بعداد مسافات أمرٌ جيد.

(2)

وبَّخني قائلًا: عداد المسافات بدون عداد السرعة يشبه الشوكة بدون سكين، إذ يكمل كل منهما الآخر ويعطيه سببًا للوجود. وسوف يخبرك عداد المسافات بالمدى الذي قطعته، أما عداد السرعة فيخبرك بمدى قوتك. فاعترفتُ بأنه على صواب. وخلال دقائق قليلة كان العدادان مثبتين على مَقود دراجتي.

وقال السيد ساسوريو: يتخبط الناس منشغلين بذواتهم، أو هم يولدون حمقى؛ ولذلك فلا تندهش أن صادفت شخصًا مخه غائب. فما رأيك في زامور كهربائي، ليكتمل لك ثلاثيٌّ بديع؟. قلت: يؤسفني ألا أتفق معك، لأنني أكره صوت الزامور. فألقى عليَّ محاضرةً: إن هذا الزامور يأتي من امبراطورية الشمس المشرقة، ولعلك تعرف أن اليابانيين يريدون الانفراد بالساحة.

إن حجم الزامور الكهربي لا يزيد عن حجم علبة ثقاب؛ وحتى إن كنت لا تُقدِّر نغمة زامور حضري، فيبقى أمامك أن تستمتع بالميزات الإضافية: صندوق رنين مزود بمشغل كاسيتات وجهاز تسجيل، وساعة هوائية تُظهر لك التوقيت الرسمي في طوكيو وأديس أبابا وهندوراس؛ ومقياس لدرجة الحرارة والضغط الجوي، وآلة حاسبة مصغرة تقوم بسبعة وخمسين، تفيد إن احتجتَ لإجراء عمليات حسابية على الطريق.

وأمام كل هذه الميزات، فقد أسعدني تمامًا أن أشتري الزامور. فلم يلبث السيد سواسوريو أن سألني: وماذا عن أحوال المناخ؟. وكان سؤالُه مُنمَّقًا، وأجاب عليه هو نفسه، قائلًا: إنه رائع، والنهار مشرق. إن شهر يناير في بينوس آيريس كفيل بإحراق مخ من له مخ. لكن، عليك ألا تتفاجأ إن تعرضتَ لعاصفة شديدة في موقع موحش جدًا، وعدتُ إلى بيتك مثقلًا بآلاف الليترات من مياه الأمطار، تثقل ملابسك وحذاءك.

انتابتني حيرةٌ للحظة؛ فأضاف: هل يُمكن أن يسمح شخص عاقل لنفسه، في هذا القرن الواحد والعشرين، أن يلحق به البللُ، في وجود هذه الأداة الصغيرة؟. وكان يمسك براحة يده تلفازًا متناهي الصغر. قال عنه: يتنبأ بالتغيرات في الطقس في مدى اثنين وسبعين ساعة، دون أدنى خطأ.

(3)

وسرعان ما ثبَّتَ التلفاز القزم على مقود الدراجة. وأردف: كما أنه يُظهرُ خطوط تساوي الضغط الجوي وخطوط معدل هطول الأمطار في كل من أستراليا والجابون، ويوفر لك معلومات عن حركة المد والجزر في الخليج العربي، وبه نظام يعمل بالموجات فوق الصوتية يُهلك ما يقابله راكب الدراجة على الطريق من القنافذ والكلاب الضالة وعظاءات الإجوانا.

ولما سألتُه: وماذا عن البعوض والذباب؟، أجاب: لسوء الحظ، تحصَّلَ الذبابُ الحقيرُ على مناعة ضد أشعة هذا الجهاز المضمونة. لكن، ماذا يُعنينا في ذلك، إن علمنا أنه يقوم بالنسخ، على وجه واحد أو على الوجهين، بالألوان، وعلى أي نوع من الورق؟.

وقد لفتت هذه الميزة انتباهي، لأنني أقضي وقتًا طويلًا في أعمال النسخ.

ثم جاءت إشارة السيد سواسوريو إلى أنه من المهم ألا يشعر غطاء العجلة الخلفية بأنه أقل قيمةً من مَقودِ الدراجة، الذي استحوذ، دونه، على كل هذه العجائب. وراح يثبِّتُ صندوقًا معدنيًا بحجم طبق الزبدة، مزوَّدًا بأزرار وروافع، خلف مقعد الدراجة، ويقول: أنت كسولٌ نوعًا ما، وربما كنتَ أكولًا،

تحب الاستمتاع بطعامك. فإن هاجمتك آلام الجوع الشرسة وأنت على الطريق، فهل ثمة ما هو أفضل من هذا الفرن، الذي يعملُ بالآشعة تحت الحمراء، لتحميص الدجاج أو قطعة من اللحم البقري، مع البطاطس والبصل، في زمن قدره خمسة وعشرون ثانية، لا غير، بينما وحدات التقطير تحوِّلُ الرطوبة في الجو إلى نبيذ؟.

وكان عرضُه مُغريًا، ولم أكن قويًا بما فيه الكفاية لأن أرفضه.

وقال سواسوريو: لقد كان مولدي في هذه المدينة، وعشتُ في حي (فيلا أوركويزا) ثلاثةً وخمسين سنة. ثم رفع صوته ويده اليمنى، وواصل: وكان اعتقادي على الدوام أن الحي يشبه عائلة كبيرة.

إنك لا تبدو مُخادعًا، ولذا سأقبل المخاطرة، وأنا واثق من صدقك، وسأعطيك بطاقة ائتمان بالدولار، يتم تسديدها على ستة وثلاثين شهرًا، بالتقسيط المريح.

ولكي أوفر عليك مشقة الذهاب إلى محل عملي بالمختبر، اعطني عنوانك، الذي استشعرته بقلبي، وسوف يجيئ المدير المالي الذي يعمل لديَّ، إلي بيتك في الغد، ومعه بعض الأوراق لتمهرها بتوقيعك.

(4)

كتبتُ العنوان، في هامش صحيفة، بخط مهزوز. وخشية أن ينسى وعده، أكَّدتُ عليه: لا ريب أنه سيأتي في الغد .. أليس كذلك؟. قال: طبعًا

سيأتيك، وسوف يكون بحوزته أوراق أذونات مصرفية تنتحبُ بسبب التوقيعات المفلسة، وكتيبات بها تطورات علمية جديدة مثيرة للرعب.

وأعودُ فأهنئك ثانيةً، فقد قمت بأفضل ما يمكنك القيام به. لقد صارت الحياةُ أكثر تعقيدًا على نحو ميئوس منه، وللدراجة بساطتها وطبيعيتها.

وكنت متأثرًا من كلامه وأنا أردُّ عليه: شكرًا جزيلًا لك. وركبت الدراجة، وتحركتُ بها، وأنا سعيد مفعمٌ بالحيوية، وعلى شفتيَّ أغنية.